**الزهد والتصوف في الأدب المغربي والأندلسي**

**أولا :مفهوم التصوف**

تتعدد تعريفات التصوف التصوف و تـزيد على ألف قول كما قال **«السهروردي»** في **«عوارف المعارف»**[[1]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn1) فما بالك بمن بعده؟!.

وردت جملة من التعاريف أجملها الناقد عبد الوهاب الفيلالي في مقاله :التصوف في المغرب :المفهوم،الأصول،التاريخ على هذا النحو:

يقول أبو القاسم الجنيد: التصوف هو **«أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة»**[[2]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn2)، ويقول أيضا عنه:**«ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعلم مع اتباع»**[[3]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn3)، ويقول كذلك مركزا على معنى التصفية للنفس والقلب والروح في التـزام بحدود الديـن:

**«التصوف هو تصفية القلب عن موافقة البـرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول في الشريعة»**[[4]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn4).

ويقول أبو حامد الغزالي:**«وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ما سوى الله وحاصله يـرجع إلى عمل القلب والجوارح»**[[5]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn5)، وهذه عنده، كما يقول **مصطفى غلوش**، هي مرحلة التخلي تتلوها مرحلة التحلي التي يحصل فيها استغراق القلب بالكلية بذكر الله تعالى، ثم بعدها مرحلة التجلي؛ حيث الفناء بالكلية في الله تعالى حتى لا يشعر السالك إلا بلذة قربه من المحبوب الحق والبقاء به والفناء عما سواه [[6]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn6)، وهو مسار بيّن الحضور وجلي الظهور عند الصوفييـن المغاربة الذيـن استوعبوا جيدا استيعاب تطبيق قوله: **« أقبلت بهمتي على طريق التصوف، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب من غيـر الله وتحليته بذكر الله»**[[7]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn7).

ويقول أبو الحسن الشاذلي: **«التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية»**[[8]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn8)، سيـرا على نهج الإسلام والتـزاما بقيمه، ونشدانا لمحبة الله وللمحبة لله. وفي ذلك قال أحمد زروق: **«التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله عما سواه»**[[9]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn9).

وجاء عند عبد الرحمان بن خلدون العالم بالاجتماع وبأحوال المجتمع المغربي أن طريقة الصوفية هي:**« طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزيـنتها والزهد فيما أقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة»**[[10]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn10).

ويقول الشيخ أحمد بن عجيبة من مغاربة القرن 12 والربع الأول من القرن 13 الهجرييـن، وأحد كبار صوفيي الطريقة الدرقاوية: **«التصوف علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة»**[[11]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn11).

ويـرى شيخ الطريقة المعيـنية الفاضلية محمد مصطفى ماء العيـنيـن أن التصوف **«اسم وضع لقوم تجردوا لعبادة الله، خالصيـن فيها لله، عامليـن بعلمهم، زاهديـن فيما سوى ربهم»**[[12]](https://www.fm6oa.org/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%88%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA/%22%20%5Cl%20%22_ftn12).

مجمل القول، أن التصوف في المغرب التـزام بما بسطه أقطابه الكبار الجنيديون وعاشوه، سلوك تخلية وتحلية وتجلية، تخلية من النقائص والرذائل وتحلية وتجلية بفعل الفضائل والأخلاق النبوية السَّنية، بدءاً من إخلاص العبودية لله بقصده لذاته وصدق محبته وقصد بلوغ معرفته، ومحبة رسول الله ﷺ والتشبث بمكارم أخلاقه والتلذذ بها، والتمكيـن لقيم الوداد والوئام والإخاء والتعاون والتـراحم.. في أبعادها الديـنية والإنسانية.[[1]](#footnote-1)

**من الزهد إلى التصوف:**

ظهر الزهد في الأندلس كامتداد للتصوف في المشرق و المغرب الإسلاميين، عن طريق الفتوحات الإسلامية إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، بعد القرن الثاني الهجري. انتشر كسلوك و ممارسة روحانية في أوساط المجتمع الحضري بين العلماء و الفقهاء في إشبيليا و بالنسيا وقرطبة والجزيرة وغيرها من المدن.

اعتبر بعض المؤرخين المستشرقين، خاصة منهم الإسبان، أن التصوف الإسلامي هو عبارة عن تطور للرهنبة المسيحية التي سادت في ديارات بلاد المشرق الصليبية، و في المونتسرات على الثغور بالجبال و حول ضفاف البحر الأبيض المتوسط، حيث حولت الديارات والترسانات بعد القرن التاسع الميلادي الى رابطات وتكك يختلي ويعتكف بها الزهاد.

لم تعرف حركة الزهد والتصوف التي ظهرت في الأندلس في القرن الثالث الهجري )3هـ( أي 9 م، إلا من خلال كتب التراجم وكتب الطبقات، التي كانت تختلف عن كتب المناقب، بحيث انها تقتصر على اخبار العلماء والفقهاء ومكانتهم العلمية.

فكانت كلمة الزهد والتصوف تستعمل في نفس السياق، الذي استعملت فيه في المشرق والمغرب الإسلاميين ، فانتشر التصوف بين الفقهاء المالكيين والعلماء في شكل أخلاق وفلسفة حياة واعتقاد وممارسة دينية واجتماعية. فتميز بفضائل الأخلاق والمعرفة والزهد، فكان الزهاد يعرفون بمظهرهم وبسلوكهم وابتعادهم عن البذخ، فكانوا يرتدون الثياب الرثة، ويمشون حفاة األقدام. كما كان يفعله أبو عبد هللا محمد بن مسرور القيرواني المعروف بالقاضي العسال، أحد قضاة غرناطة في عهد عبد الرحمان الثاني ) 206 هـ -230 هـ 822 م – 852 م(، الذي أعرض عن حياة البروز في المجتمع، واستقال من كرسي القضاة، و فضل العزوبة وأصبح من كبار زهاد عصره. مع بداية القرن الرابع )4 هـ(، بدأت تظهر معاني التصوف اإلسالمي في االدب االندلسي كسلوك و أخالق و أحوال . و في كتب السير والطبقات أسماء ودالالت و مفردات حول التصوف كزهد وزاهد و عابد ومعتكف والبديل والمتصوف، وكان هذا في كتب التراجم، كما لوحظ أن أغلب الزهاد الذين ورد اسمهم في كتب وتراجم المغاربة، كانوا يفدون من دول المغرب و إفريقيا.

ارتبط الزهد والتصوف في الأندلس في مرحلة ثانية، بعد اشتداد الصراع الصليبي الإسلامي في غرب البحر الأ بيض المتوسط بالمرابطة والمجاهدة، حيث أصبح بعض الزهاد يلجؤون إلى الثغور والمستنيرات البيزنطية المهجورة .. فقد ارتبط هنا الزهد بالمرابطة، كما كان الشأن في بالد إفريقية والمغرب، فكانوا الزهاد يرابطون في ثغور المغرب وسالة والرباط وسوسة وتلمسان والعباد. وكان أشهر هؤالء الصوفية الذين كانوا يترددون على المحارس أو الرباطات نذكر أبي الخصيب )298 هـ / 910م(، الذي كان جنديا زاهدا ومرابطا وعابدا و أبو العالء هارون الأندلسي.

جاءت حركة التصوف منذ البداية كحركة سياسية واجتماعية تقوم على دعوة الحق ومحاربة المظالم. فتميز نشاط الزهد بشجب الظلم والاضطهاد الذي كان يمارسه بعض الأمراء والحكام في الأندلس في العهد الأموي، فإلى جانب محاربة الظلم، كان الزهد يقوم على االنزواء بزاوية المجتمع، بالإعراض عن السلطة السياسية، والانغماس في الحياة العامة، وهذا بالانقباض على الحياة اليومية، والإعراض عن الظهور والسلطة. هذا ما جعل الكثير الزهاد يرفضون مناصب ووظائف حكومية في القضاء وغير القضاء. وهذه الظاهرة هي نفس الظاهرة التي سادت في المشرق وفي المغرب الإسلاميين بين القرن 3 هـ و 8 هـ. و بعض الزهاد من الذين قبلوا بعض الوظائف في البلاط قبل تصوفهم كانوا قد اضطروا مغادرة هذه الوظائف في زمن الحق وبأسرع وتيرة مما قبلوها. فلم يكن الزهاد يرفضون السلطة فحسب، بل حافظوا على الوعظ واإلرشاد وكل الخدمات الروحية واالجتماعية بتواضع وفي خفاء تام. كما بعض الزهاد مثابرين يحبون القراءة و التأمل ، مندمجين في مجالس العلم والمعرفة، محبين للرحلات والسياحة بين ديار الإسلام[[2]](#footnote-2).

**أسباب انتشار التصوف في الأندلس:**

-الحراك الثقافي والعلمي المنقطع النظير الذي عرفته الهجرة الدينية بين المشرق و المغرب االسالمين.ومن أشهر العلماء ابو عثمان سعيد بن عمران بن مشرف القرطبي )ت ه 266

-كثرة السفر والتنقل ومنه تبادل العلوم والمعارف،حيث كان الأندلسيون عبر رحالتهم ينهالون من شيوخ المشرق أبجديات التصوف و مبادئ الحقيقة و الشريعة، كما حل ببالد األندلس عدد من علماء و زهاد المشرق يدعون إلى نزعتهم وينشرون اذكارهم بين مختلف طبقات المجتمع. من هؤالء نذكر بن عبد هللا بن موسى بن إبراهيم، المعروف ابن المهند.

-السياحة الدينية حيث حل بالأندلس بالكثير من مشايخ المشرق. منهم ابراهيم بن علي الديلمي الخراساني و حل بأشبيلية سنة ، 358 بعد أن قران و اعتكف في دمشق مع عبدهللا الروذباري . و عاد الى المغرب بجانب ابا الخير التيناتي،وجدير بالذكر أن مشايخ التصوف الذين ذكرهم يتصلون بسلسلة التصوف المصري و قطبها ذو النون المصري، على غرار علماء المغرب الذين يرتبطون بابي مدين شعيب و منهم شيخ االكابر ابن عربي. لهذا نشهد في االندلس تضافر السلسلة المغربية بالمصرية و بالبغدادية عن طريق السياحة و التواصل بين الغرب و الشرق الإسلاميين[[3]](#footnote-3)

**المراجع:**

1. عبد الوهاب الفيلالي :التصوف في المغرب :المفهوم،الأصول،التاريخ ،مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة .
2. كمال الفيلالي :التيارات الصوفية في الغرب الإسلامي ،بين القرنين4ه،9ه و11م،17م، محاضرات بين العلاقات بين المغرب الإسلامي والعالم المسيحي ،ماستر2، جامعة محمد بوضياف ،المسيلة .
3. ينظر للاستزادة: محمد الكحالوي ، التصوف في افريقيا و المغرب، الفكر الصوفي في افريقيا و المغرب، بيروت لبنان ، 2009
4. ينظر للاستزادة : عبد السالم غرميني ، المدارس الصوفية المغربية و الأندلسية في القرن السادس الهجري، جار الرشاد ، المغرب.
1. عبد الوهاب الفيلالي :التصوف في المغرب :المفهوم،الأصول،التاريخ ،مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة . [↑](#footnote-ref-1)
2. كمال الفيلالي :التيارات الصوفية في الغرب الإسلامي ،بين القرنين4ه،9ه و11م،17م، محاضرات بين العلاقات بين المغرب الإسلامي والعالم المسيحي ،ماستر2، جامعة محمد بوضياف ،المسيلة. [↑](#footnote-ref-2)
3. كمال الفيلالي :التيارات الصوفية في الغرب الإسلامي ،بين القرنين4ه،9ه و11م،17م، محاضرات بين العلاقات بين المغرب الإسلامي والعالم المسيحي ،ماستر2، جامعة محمد بوضياف ،المسيلة. [↑](#footnote-ref-3)